معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2022/05/03
تاريخ القبول: 2022/06/18

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

المدح النبوي الشريف وتطوره

The Prophet's praise and its development

طاهر بن علي

جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر) drbenalitaher@gmail.com

الملخص:

شعر التصوف كان تأثيره عجيبا في رفع ذوق العامة والخاصة في البلاد الإسلامية : فالعامة جعلته منهج ألوان عاكس لديكور أفراحها وأحزانها يتماشى وجميع أحداثها والخاصة جعلته منهاج رقي وتهذيب لقرائحها المتأججة نحو انتظام قواعدها في فن القول الشعري سموا وإبداعا .

الكلمات المفتاحية: شعر. تصوف .مدح .النبوي .أثره .تأثيره .

ABSTRACT

Sufism's poetry had a strange effect in raising the taste of the public and private in The Islamic countries: the general public made it a method of colors reflecting the décor of its joys and sorrows in line with all its events and special events made it a platform of sophistication and refinement for its burning segments towards the regularity of its rules in the art of poetic saying named and creative.

Keywords: poetry. Sufism. praise. The Prophet. His trail. Its impact .

1. مقدمة:

المديح غرض أدبي متنوع الخلجات عالج فيه الشاعر العربي كل ما يحتاجه المجتمع من معالجة مشاكله الاجتماعية والعقدية في جميع المناسبات ، فالشعر الصوفي استفاد من العلوم المسلمين الأعاجم الذين دخلوا إلى الإسلام ، وشمل في أغراضه أجناسا أخرى متطورة دفاعا على العقيدة الإسلامية ، فيه كثيرا من الردود الفلسفية والكلامية للعقائد الأخرى التي وفدت وتأثر بها المداح في شعرنا العربي ، فكانت رافدا معرفيا جديدا مفيدا أثرى مخيلة الشاعر العربي في شعر المديح في كل مرحلة من مراحله .

2.شعر التصوف و أثره :

كان شيوع التصوف في العصر العباسي شرقا وغربا من البلاد الإسلامية قد أظهر المدح النبوي فعالية في الحياة المسلم وولد بشكل متطور مكتمل لم يعهد به من قبل ، فقد كان عدة حربية قتالية يتسلح بها الجنود أثناء المعارك ، وهذا ما تفطن له الدكتور شوقي ضيف في كتابه فصول في الشعر ونقده ، عندما قال :

" يظن بعض الناس حين يرون أسلافنا من المتصوفة يعيشون في رباطات ، وتكايا ، وزوايا أنهم كانوا يعيشون في عزلة عن المجتمع الإسلامي لا يحسون بآماله ، وآلامه فضلا عن الدفاع عنه ، وحمايته حين يلم به الخطر ، وهو ظن واهم ، فقد كانوا دائما في مقدمة الصفوف المحاربة ، ومن لم يحارب منهم كان يحمس للقتال بأشعار حماسية ، كانوا ينظمونها وهم يسددون رماحهم إلى نحور أعدائهم "[1] .

وساعد على تطور المديح النبوي علماء أفذاذ في التصوف من أمثال الإمام عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشرية (ت465) ، وأبي حامد الغزالي (505هـ) صاحب كتاب " إحياء علوم الدين ".

وشعراء موهوبين من أمثال يحي بن يوسف الصر صري البغدادي الضرير الذي توفي شهيدا في معارك المغول سنة (656هـ) ،وأحسن المدح النبوي أجاد فيه كثيرا واشتهر به ، حتى قال فيه الصفدي " لا أعلم شاعرا أكثر من مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم أشعر منه "[2] .

وقال مخيمر صالح : " إن قصيدة المديح النبوي عبر تاريخها الطويل لم تتضح أو تكتمل مثلما نضجت ، واكتملت عند الصرصري ، والبوصيري إذا استوعبت ، واستوفت التقاليد الفنية ، ووضحت أيما وضوح"[3] .

وإذا أردنا أن نلمس هذا الاكتمال الناضج عند الصرصري في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم كان علينا أن نقف موقف إعجاب وتقدير لهذا الحب العارم في أفكار ، ووجدان الشاعر عندما يقول :

كم ذا أعبر عن سلع بكاظمة ... صونا وعن عذبات البان بالسلم

دعني أصرح بمن في حبهم شرفي ... وذكرهم طيب في مسمعي وفمي

وهل لذي كبد تشكو الصدى نهل ... من وردها الرائق المستعذب الشبم

محمـــــد المختـــار من مضـــر أزكى القبائل في الأنساب والشيـم

وتحول جديد أيضا نلمسه عند ابن الفارض (ت632) – فقد مهد به لمن جاء من بعده – إذ هام بحبه صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بأرق الأوصاف ، ونظم فيه القصائد تذوب لوعة ، وصدقا ، وحبا منها قوله[4] :

زدني بفرط الحب فيك تحيـرا وارم حشايا بلظى هواك تسعـرا

وإذا سألتك أن أراك حقيقـة فاسمح ولا تجعل جوابي لن تـرا

إن الغرام هو الحياة فهمت بـه صبا فحقك أن تموت وتعـذرا

إلا جاء بعده محمد بن سعيد البوصيري (ت696) ، وأصبحت قصائد المدح النبوي الشريف متميزة أكثر بحرارة اعتقاديه ، وإيمانية أكثر وضوحا في حبها ، وفعاليتها ، وستبقى ما بقت العربية .

وممن أعجب بها من الكتاب الحاليين عبد العليم القباني ، وأظهر سبب اهتمام الناس بها عندما قال : " بقي لنا أن نذكر ما طبعته (بردة البوصيري) في وجدان الجماهير على مر السنين منذ أن نظمها صاحبها في القرن السابع الهجري إلى اليوم من تقدير ، وحب ، وإعجاب ، ومن تقديس عند العامة ، وبعض الخاصة إذ اتخذت بعض طوائف الصوفية منها وردا يقرأ في الخلوة ، وحلقات الذكر ... ، ونسبت إليها البركات ، وقيل إنه اهتدى كثير من الناس بسببها إلى الإسلام ... ، وأيا كانت قيمة هذا الكلام ، فإن للقصيدة مكانة عند الجماهير لم تصل إليها قصيدة على الإطلاق ".

وأثنى كثيرا عليه سليم البشري عندما شرح نهج البردة قائلا : " وشعره في غاية الحسن ، واللطافة عذب الألفاظ منسجم التركيب ، وله في مدائح النبي صلى الله عليه وسلم قصائد طنانة ، وقصيدته المشهورة بالبردة "

1.2.البردة:

للحديث عن البردة يجدر بنا أن نمهد إلى ذلك بالتطور الذي طرأ على المدح النبوي قبل عهد البوصيري .

2.2.المدح النبوي وتطوره :

بعد الهجرة النبوية الشريفة انبرى كثير من الشعراء المسلمين يدافعون عن الإسلام والمسلمين ، ونبيهم الكريم ضد الكفار ، وقال صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت " اهجهم ، وجبريل معك "[5] . فهجاهم ، وأظهر محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم [6].

فقال حسان :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا رسول الله شيمته الوفاء

و مدحه صلى الله عليه وسلم حتى من أسرته الشريفة ،فهاهو عمه أبو طالب يمدحه بقوله :

وأبيَضَ يُسْتسقَى الغَمامُ بوَجهِه ثِمالُ اليَتامى عِصْمةٌ للأرامِلِ

تلوذُ به الهُلاك مِن آل هاشم فهم عندَهُ في نعمة وفواضل[7]

وفي أخرى يشيد بفضائله قائلا:

فإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها

وكذلك عمه العباس بقوله له : أريد أن أمتدحك ، فقال صلى الله عليه وسلم "قل لا يفضض الله فاك "[8] قال :

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

كم هبطت البلاد لا بشر أنت ولامضغةولاعلق

بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق[9]

حتى احتوى بيتك المهين من خندق علياء تحتها النطق

وأنت مما ولدت أشرقت الأ رضوضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد تخترق

نجد المدح قد تأثر بحركات الأحزاب التي برزت من زبيريين ، وخوارج ، وشيعة ، وأمويين ، وأصبح مليئا بالحجج ، وأفكار الفرق الإسلامية .

المدح النبوي بقى مستمرا ، وشمل آل البيت ، وبعض الصحابة رضي الله عنهم حسب اتجاه كل مذهب من المذاهب الإسلامية مشيدا ببعض الأسماء من الصحابة الكرام ناشرا لفضائلهم

أو ملبيا رغبتة وانتمائه السياسي ، أو داعية لفرقة إسلامية ، أو مذهب من المذاهب .

فانظر مثلا : ما يقوله أبو الأسود الدؤلي[10] :

يَقولُ الأَرذَلونَ بَنـــو قُشَـيرٍ طَوالَ الدَهرِ لا تَنسى عَليّا
فَقُلتُ لَهُم وَكَيفَ يَكونُ تَركي مِنَ الأَعمالِ ما يُقضى عَلَيّا
أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَـــــديداً وَعَبّـــاساً وَحَمزَةَ وَالوصِـيّا
وَجَعفَرَ إِنَّ جَعفَرَ خَيرَ سِبـطٍ شَهيداً في الجِنـــانِ مُهاجِريّا
وَما أَنسى الَّذي لاقى حُسَيناً وَلا حَسَناً بِأَهوَنِهِـــــم عَلَيّا
بَنـــــــو عَمِّ النَبِيِّ وَأَقرَبـوهُ أَحَبُّ الناسِ كُلِّهِـــــمُ إِلَيّا

ويمدح الفرزدق زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين عندما أنكر هشام بن عبد المالك معرفته أثناء موسم الحج عندما رأى الحجاج يفسحون له الطريق أثناء الطواف ، ولم يعاملوه بالمثل وهو ولي العهد فقال مستنكرا :

من هذا؟

فخاطبه الفرزدق على الفور قائلا[11] :

هَذا الَّذي تَعرِفُ البَطحاءُ وَطأَتَهُ وَالبَيتُ يَعرِفُـــهُ وَالحِـــلُّ وَالحَرَمُ
هَذا اِبنُ خَيرِ عِبادِ اللَهِ كُلِّهِـــــمُ هَذا التَقِيُّ النَقِيُّ الطاهِـــرُ العَلَمُ
هَذا اِبنُ فاطِمَةٍ إِن كُنتَ جاهِلَهُ بِجَـــــدِّهِ أَنبِياءُ اللَهِ قَـــد خُتِمـــوا
وَلَيسَ قَولُكَ مَن هَذا بِضـــائِرِهِ العُربُ تَعرِفُ مَن أَنكَرتَ وَالعَجَمُ
كِلتا يَدَيهِ غِياثٌ عَمَّ نَفعُهُمـــا يُستَوكَفانِ وَلا يَعروهُما عَـــــدَمُ
سَهلُ الخَليقَةِ لا تُخشـــى بَوادِرُهُ يَزينُهُ اِثنانِ حُسنُ الخَلقِ وَالشِيَـــمُ
حَمّالُ أَثقالِ أَقـوامٍ إِذا اِفتُدِحـوا حُلوُ الشَمائِلِ تَحلـــــو عِندَهُ نَعَمُ

3.البردة وأثرها :

1.3.أثرها في الأدب : ذاع صيت قصيدة البردة بين الناس في المشرق ، والمغرب ، واشتهر صاحبها ، وأصبحت من التمائم التي يدفعون بها الضر والألم ، فقد اتخذها كل حسب حاجته ، فإذا كانت عند أحد وسيلة للترويح ؛ فهي عند غيره قربي من قربات الله ، وذكر ، وثناء على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعند الشعراء نموذجا يحتذى به في معارضتها ، وتخميسها ...، وقد شرحها كثيرمن العلماء ، واعتنى بها النقاد العرب بجميع اتجاهات مذاهبهم الأدبية وذهبوا بها كل مذهب ، وترجمها المترجمون إلى لغاتهم المختلفة إلى : الإسبانية والألمانية والصينية والأمازيغية والفرنسية والروسية والأردية والفارسية[12] ....

المادحـــــون وأرباب الهوى تبـع لصاحب البردى الفيحاء ذي القدم

مديحه فيك حب خـالص وهوى وصادق الحب يملي صـــادق الكلـم

الله يشهـــد إني لا أعــارضـــــه من ذا يعارض صــوب العارض العـرم

وإنما أنـا بعض الغابطين ومـــــن يغبط وليـــــــــك لا يذمم ولا يلـــم

هذا مقـــام من الرحمـــن مقتبس ترمي مهابتـــــــه سبحـــــان بالبكم

كما تناولها ، بالدراسة كثير من علماء الأدب ، ومشاهيره من غير المسلمين نظرا لما حوته هذه القصيدة من جماليات فائقة . .

ولا عجب إن تأثر كبير شعراء العربية ، وأمير شعرائها في العصر الحديث أحمد شوقي ، فقد هام بها ، وأحبها حبا شديدا ، وكبرت هي وناظمها في عينه ، ولم يخف إعجابه الشديد بها ، وجعلها في أعلى المراتب ، وفسرها ذلك بأنها هبة من الله على البوصيري لحبه الشديد لله

فقال فيه :

ومن أظهر إعجابه بها كثيرا إبراهيم حقي الموصلي . المتوفى سنة 1339هـ / 1921م .

حيث يقول في الشاعر ، وفي قصيدته : " وأما من حاز قصب السبق من أمته في مديحه شعرا ، فهو العالم الكامل نابغة القرن السابع الهجري أبو عبد الله محمد بن سعيد الشهير بالبوصيري رحمه الله ... .

تلقاها علي مر السنين ، والعصور كثير من المسلمين في مختلف الأقطار الإسلامية بالقراءة، والحفظ إلى درجة لم تحظ بمثلها غيرها من القصائد حتى أن بعضهم جعلها من الأوراد ، وكتبها أمهر الخطاطين بماء الذهب ، وزينها بأبدع الزخارف ، والألوان . وحضورها واسع في البيوت ، وأماكن العبادة "[13] .

ب – أما من أولاها عناية أكثر ، وبين محاسنها ، وفضائلها ، وحصر أثرها في خمس الدكتور زكي مبارك وهي كالآتي: **2.3 أثرها في الجماهير الشعبية:**

نستطيع الجزم بأن الجماهير في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة ،كما حفظت البردة ، وتقرأ في المساجد ، والمولد النبوي ، والمناسبات الدينية ، والاجتماعية ، وتيمنوا بها ، وطبعت عشرات المرات لسعة ، ودوام طلبها ، وتفننوا بخطها والبوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين ، ولقصيدته أثر في تعليمهم الأدب ، والتاريخ ، والأخلاق ، والسيرة النبوية ، وهذب كل ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال .

3.3. أثرها في التأليف :

ويظهر فيما وضع لها من الشروح على مر العصور تزخر باللغة ، والأدب ، والتأريخ ، وقد بلغت العشرات ، والفضل يعود في هذه التفاعلات إلى ذلك الشاعر المجيد .

4.3 أثرها في الدرس :

حيث كانت دراستها في الأزهر مما يسد النقص في دراسة السيرة النبوية ، والتأريخ على ضوء ما جاء في حاشية الباجوري علي البردة .

5.3. أثرها في الشعر :

إذ ضمنها الشعراء ، وشطروها ، وخمسوها ، وسبعوها ، وعشروها ، وعارضوها في مصر ، والمغرب ، والشام ، والعراق ، وعرفنا من الذين خمسوها نحو الثمانين ، والذين عارضوها فيعدون بالعشرات .

6.3. أثرها في البديعيات : بعد موت البوصيري سنة 696هـ ، ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي ت780هـ ، وقد افتتن بقصيدة البردة ، وشغل نفسه بمعارضتها ، ولكن أي معارضة لقد ابتكر فنا جديدا هو – البديعيات – .

أرأيت كيف أثرت قصيدة البردة في اللغة العربية ؟ وكيف ساد سلطانها بين العوام والخواص ؟ إن الإخلاص هو الذي مكن البوصيري من ناصية المجد الأدبي ، وهو الذي رفعه إلى منزلة الخلود[14] .

وممن ذهبت بلبه كثيرا ، وأثرت في وجدانه ، وصقلت ذوقه ، وعبرت عن صبابة حبه لمدده صلى الله عليه وسلم شوقي الضيف عندما قال عنها بعدما أتم كلامه عن همزية البوصيري : " وأروع من تلك القصيدة إن لم تكن أروع مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام قصيدته ، بل قلادته المعروفة باسم البردة ؛ التي بهرت المسلمين في عصره ،وبعد عصره كما بهرت نفرا من المستشرقين ، أما معاصروه ، ومن تلاهم ، فقد أكثروا من شرحها ومن تشطيرها وتخميسها ، وتسبيعها كما أكثروا من معارضتها ، وآخرهم شوقي في ميميته المشهورة ، وترجمها بعض المستشرقين إلى لغاتهم كالانجليزية والألمانية والفرنسية "[15].

البحث في أصول الأدب المغربي عامة ومدى عراقة أصالته وتطورها يعتبر في هذا الفن التصوفي من أهم القضايا النقد المطروحة الآن على الباحثين المغاربة ؛ لتبينها وتبنيها نظرا ؛ لما لحقته به بعض من ضيم وتعسف من أبناء جلدته شرقا وغربا قديما وحديثا إثباتا وفعالية في بحر الإنتماء الإقليمي المغربي له .

وعلى هذا الأساس رأيت فيه من الأولويات أن أقوم بهذه المحاولة النقدية ؛ لنشارك في تدارك التقصير الذي انتابه من قبل الباحثين المشتغلين بفنون الأدب ذي الأصول المغربية والمنتجين لها ، وما التصق بهم من تقليل من شأن انتاجهم الفني من قبل نقدة المشارقة نظرائهم ، واتهامهم لهم بأنه تابع لهم ونسخة من تأليفهم المقلدة لمصنفاتهم لا إمام له فريد منفصل بذاته وخصائصه لا مؤثر في غيره لا يلتحق بركبه الكثير من الفنون المولدة منه .

ومن هذه الإدعاءات وغيرها في المجال نفسه ؛ التي أظهرت عزوف الباحثين عنه والزهد فيه ، وهذه المواقف المترددة في الإشادة به ودفع نحو دراسات رائدة مما جعلنا نحن المغاربة ننظر إليه على أنه ميدان بكر وثري لم يكتشف ذخره بعد ، ولم يدرس الدراسة الوافية ؛ حتى يوسم بهذه الأحكام الجائرة ، بل يجب أن ننظر إليه من حيث :

1 – أنه أول ميدان تاريخي دال على كل الفترات والمراحل ؛ التي مر بها المغرب العربي .

2– كما أنه ميدان خصب ينطلق منه لتأسيس ثقافة متميزة لها خصائصها الفكرية والفنية .

3– كما أنه ميدان متنوع من حيث أشكاله ومضامينه أي : من حيث العدد وكمية التأليف والتنوع في مختلف المعالجات ، والإبداعات الخاصة به من حيث :

أ– بوجه عام ، وبوجه خاص حافظت على التميز الإبداعي الأدبي المغربي .

ب– تعلق المغاربة بالمدح النبوي الشريف ؛ حيث نجد كثيرا من أعلام الأدب اهتموا كثيرا به وتعقبوا مراحله ، وأعطوه اهتماما كبيرا مثل ما نالت قصيدة كعب بن زهير [بانت سعاد] وأولوها اهتماما ملحوظا وهاموا بها كثيرا تقريظا وشرحا ومعارضات .

ونلمس هذا الاهتمام جليا في كثرة الشروح والتحاليل النقدية المتميزة ؛ لمقصورتي حازم القرطاجني وابن دريد ، وأوقفتهم كثيرا كل قصائد المدح النبوي مثل: تائية دعبل الخزاعي الشهيرة ، وكافية شريف الرضي العظيمة ، وغيرهما من قصائد المدح النبوية البليغة .

إلا أن جاءت قصيدة البردة حيث لم تترك لقصائد المدح النبوية أية فرصة أخرى أكبر من مثل هذا الاهتمام ، بعد ما قام بنظمها البوصيري ؛ حتى قال فيها زكي مبارك : " إلا أن قصيدة البردة قد بزت الجميع شهرة وسيرورة ودورانا على الألسنة ، وفي المجالس والمحافل والمنتديات "[16].

وقبله بنحو 379سنة أثبت العلامة أحمد بن حجر الهيثمي[17] المتوفى سنة 937هـ عن قصيدة البردة بقوله : " ... ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة ، والتي كانت سببا في شفائه من الفالج الذي ألم به لكان ذلك كافيا ، وقد

زادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت ، والمساجد " . كما جاء في كشف الظنون : " ... قصيدة البردة هي المشهورة بين الأنام ، ويتبرك بها الخواص ، والعوام ، حتى قرأت قدام الجنائز في المساجد... ، وكتبوا عليها من التخميسات ، والتسبيعات ، والنظائر ، مالا يعد ، ذكر السهراني أنه رأى خمسة وثلاثين تخميسا

جمعها بعض العلماء ،ورأى تسبيعا عجيبا مبدوءا من أوله إلى آخره بلفظ الجلالة للشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المكي "[18] .

فقد حظيت هذه القصيدة بقسط وافر من الشرح والتقريظ والمعارضات ؛ إذ ألهمت الكثير ، فنسجوا على منوالها في كل العصور التي توالت بعدها ، وتأثيرها واضح في الأعمال الإبداعية الشعرية ، وإلى يومنا هذا لدى كثير من الشعراء المادحين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد وظفت البردة في كثير من الدروس والبرامج التربوية النحو والبلاغة [19] ، وأخذت منها الأمثلة النموذجية من الإستشهادات الأدبية والأخلاقية والعلمية ، ومن سيرة ، وتاريخ[20] ، وتسجيل حافل لكثير من الردود العقدية فيها التي تزخر مشاركة في أحداثها الجليلة .

أتسع غرض المدح لها جميعا وأقبل عليها العام والخاص كل حسب منهج دليله .

1. فالعوام أقبلوا عليها في حالة أفراحهم وأحزانهم ، ووجدوا فيها تغييرا لأمزجتهم كلما ادعت الضرورة إلى ذلك ، فحفظوها وتغنوا بها في مناسباتهم الاجتماعية ، وتبركوا بها في أحاديثهم ، وتطببوا بها تبركا من أمراضهم التي أصابتهم .

2. وكست أذواقهم رهافة وجلالا وأكسبتهم رقة وجمالا ، وأغنت أحاسيسهم بالنبل والحسن ، وأشبعت مداركهم كثيرا بالدروس المستخلصة من السيرة النبوية الشريفة والآداب الإسلامية الفاضلة .

3. وأما أثرها على العلماء ، فقد استغلوها في فنون التعلم والتعليم كمنظومة تربوية هادفة ؛ لقنوها للتلاميذ وأسسوا عليها نماذج يحتذى بها في النظم كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وكتبوا عليها الشروح الدراسية الكثيرة الغنية ؛ لتبسيط العلوم وأضافوا إليها الحواشي المزودة بفنون القول والإفادات ؛ التي لا غنى عنها لدارس ، فقد ملأت مخزون المؤلفات في الغرب العربي ، وأعطت بوضوح نكهة خاصة ، لمشاركة المغاربة الفنية في مجالات النقد والأدب وحقول المعرفة والتأليف ؛ واستجابت المدائح النبوية مشاركة فنا مؤثرا لمعارك أهل السنة والجماعة المالكيين المغاربة التي كانت ناشبة بينهم وبين الشيعة الباطنية الفاطميين وغيرهم من رواسب الفرق الأخرى التي تعج بها الساحة المغربية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين ؛ وكما هو حادث ومستمر جدل موضوعه الآن من صراع فكري وعقدي بين الطوائف المستجدة على الأدب والثقافة المغربية[21] .

4. كما كشف هذا المخزون الغطاء عن مضمون رصين وأصيل ، وتأكد لنا عن طريق الدراسة أن هذه الشروح أثمن ما توصل إليه العقل المغربي من مشاريع فكرية ؛ استطاع صياغتها من جديد ظاهرة في معرض التأليف والإبداع المغربي .

5. والمتصفح لهذه الآثار يلمس جدية البحث الثقافي والعلمي والتأليف لدى المغاربة ما أدى الاهتمام به عند بعض طبقة الباحثين الموضوعيين ،لإستخراج مكنون النصوص المغربية ؛ التي هي بحاجة ماسة لهذا النبش البناء من جديد بغية إعطائها حقها من الدرس والبحث ، والتبشير بمستجداتها وإنزالها منزلتها اللائقة بها

6. والحقيقة تقال أن هذه الشروح الدراسية جاءت كاملة ؛ نظرا لموسوعية أصحابها فهم من كبار العلماء والباحثين والمؤلفين ، الذين يعرفون مواطن الحسن والقبح في تناولهم للفنون والعلوم ، فجمعت مصنفاتهم بين طرفي الفائدة والمتعة ، لذلك كتاباتهم تنقلك من صرامة العقل إلى بداهة العفوية في إراحة هذا العقل بضروب من ألحان القول في أريحية من النكت وغريب الطرائف ونوادر الأشعار ، ومن أبرز هذه الشروح المفيدة الممتعة ؛ شرح ابن مرزوق الحفيد المسمى بإظهار صدق المودة ، فهو العالم والأديب والناقد التلمساني في عهد الدولة الزيانية خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين.

7. ويمتاز هذا الشرح بتفرده عن غيره من الشروح في جمعه لكثير من العلوم ؛ التي مارسها الناقد على النص الأدبي بغية استخراج مكامنه واستنطاق جوانبه ؛ التي لم يسبقه إليها أحد قبله من معاصريه الذين شرحوا البردة .

8. والناظر إلى شرح ابن مقلاشالوهراني[22] المعاصر له لا يجد هذا الاهتمام الثري الموسوعي ، الذي حظي به النص عند ابن مرزوق ، فقد قصر ابن مقلاشالوهراني اهتمامه فقط على جزء محدود منه في الشرح والتحليل ، وإن سار على نهج ابن مرزوق في التقسيم الثلاثي .

9. وكل من جاء بعدهما تأثرا بهما ، نقلا عنهما وذهب كثير من النقلة إلى عدم إحالة هذا النقل وإرجاعه إلى صاحبهما خاصة ابن مرزوق ، مثل ما فعل القسطلاني وأبو السعود والحمزاوي والبشري وغيرهم كثير من المشرق والمغرب .

وقد نبهت إلى هذا النقل غير الأمين في مثل هذه الحالات في حواشي المتن

وقد اخترت منه في توضيح هذا المصنف الضخم الموسوعي ذا الأصول المغربية للأسباب الآتية:

1. فن البديعيات إبداع مغربي صرف ،وإن حاول بعض المشارقة سلبه من قائمة المشاركة الأدبية المغربية ؛ باستثناء ما أقره زكي مبارك بأمانة ووضوح في كتابه المدائح النبوية : أن الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن علي الهواري المعروف بابن جابر الأندلسي (ت 780هـ) التي سماها (الحلة السيراء في مدح خير الورى) أنه مبتكر هذا الفن .

2. بقوله: (وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أي معارضة ؟ لقد ابتكر فنا جديدا هو البديعيات ، وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن لكل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع).

3. المدح النبوي له مكانة عند كل المسلمين ، وفي قلوب المغاربة مذاق خاص في المولد النبوي الشريف ، فهم من أوائل من احتفل به طيلة هذه العصور وجعلوه من الأولويات التنظيمات السلطانية ، وليس صحيحا أن الفاطميين

أول من ابتدعه ؛ لأن الفاطميين إبان وجودهم في بلدان المغرب العربي كانوا حربا مشعلة ومطاردة على علماء أهل السنة والجماعة جعلوا هذا التقليد المغربي الخاص السني ينتقل إليهم تقليدا فقط ، وهم أول تأثر تأثروا به من المغاربة أهل السنة والجماعة رسميا لأنهم قد وجدوا فيهم احتفالية خاصة بالمولد النبوي الشريف دأبا متداولا بينهم ، ولونه فيما جاء بعدهم من حكام دويلات من أهل السنة والجماعة وأظهروا هذا الحب الصوفي تمييزا لهم عن الفاطميين الشيعة بأجواء وأذواق مغربية خالصة بهم والتزاما بأدبهم وفقههم السني .

4. صاحب الشرح عالم وناقد مغربي كبير؛ لم ينج من التعسف الذي طال أدباء المغرب من إهمال ونسيان وسلبهم محاسنهم ؛ بالرغم من شهرته الواسعة في المشرق والأخذ عنه ، وذكر ممن استفادة منه أو ممن كتب منه أو النقل عنه فقد صمتوا عن ذلك جميعا ، ولم يذكروا ذلك الإبداع له جميعا . . فيما نعلم وعلى ما توصلت له يدي في البحث ؛ فقد انصفت الرجل في التحقيق من باب رد الأمور إلى مصادرها ، كما تقتضيها الأمانة العلمية في ذلك .

5. حب الاطلاع على آثار أدباء الجزائر في بناء المغرب العربي الكبير ، ومشاركتهم الفعالة في النهضة الثقافية قديما فيها ، وإخراج هذا العمل الرائع من جديد ؛ لنساهم ولو بهذه الإلتفاتة البسيطة منا، ولنطلع على ما كانت عليه مستويات الفكر والأدب ، والنقد في تلك الفترة وتسليط الضوء عليها ، وليتولى الاهتمام بها من طرف الدارسين المختصين .

6. معرفة ما توصل إليه المدح النبوي من تطور في جوانبه المختلفة من ذوق خاص ، وما أدخله المتصوفة من حس وجداني وسلوكي ، وحركي على مستوى الإبداع الفني .

7. كما أنني لا أستطيع أن أخفي شعوري بانجذاب كبير لهذه المعاني الراقية الحاضرة في المدح النبوي الشريف ؛ التي مثلت لي رافدا روحيا أمدني بمصدر عظيم نابع من صفاء العقيدة وتجليات في وحدانية الله ، وما أمدتنا من وزاد معرفي ورواء ثقافي وأدبي ، أصبح تجاوبا حيا لا غنى عنه يحييه تفاعلي وتواصلي المريح مع هذه الأجواء الرائعة الفذة ؛ التي لا أجد أثرها إلا في هذه الظلال الوارفة من ساحة الإخضرار البديع حسنه .

ومن ناحية أخرى :

ومن علماء الغرب كانت مشاركة البارعة في شرح ابن مرزوق النقدي ،لهذه الروائع من المديح النبوي الشريف فقد أطبقت شهرته الآفاق شرقا وغربا ، ولم تخل زاوية أو مكتبة – تقريبا– إلا ووجدنا فيها نسخة منه ، فقد فرض نصها نفسه على الساحة العلمية والثقافية عامة والأدبية خاصة ، لما احتواه من مادة تامة وكاملة رسمت معيارا نقديا واضحا من نصوص في تلك الفترة .

1- فشرحه الدراسي للنص الأدبي يعتبر مصدرا نقديا جادا وجديدا ؛ ظهر خلال القرن الثامن والتاسع يمكن التعامل معه بكل ثقة وأمان في معرفة المصطلحات العلمية والوسائل المعرفية ، والأخذ بها واستعمالها استعمالا مثمرا حسب ما تتيحه الفرص وتتطلبه الحاجة إلى ذلك ، ويعتبر الكتاب حكم صريح ، وواضح على تطور النقد الجزائري ؛ لكل متتبع لهذا التطور .

2- كما أن شرحه من الشروح ؛ التي لم نجد ما يعادلها من حيث الكم ، فهو شرح موسوعي ضخم لا يوازيه شرح ؛ ولا من حيث النوع ، فقد حوى منظومة قيمة بناها من شتى المعارف ؛ تميزت بالموسوعية ، في غزارة المادة ، والدقة في وضع الموازين والمعايير النقدية.

ولم يأت ابن مرزوق في نقده منهجا تلفيقيا مختلقا أو مقلدا غيره على الإطلاق ؛ بالرغم من استعماله لما هو موجود ومعروف ؛ لكن بمعايير تحمل بصماته ، أصلت لمادة نقدية متميزة تنسب إليه في النقد المغربي القديم ، فقد فصل بين النص كمادة حاضرة وحقلا من حقول المعرفة القائمة بذاتها ، وبين الأدوات والوسائل النقدية المسلطة على النص لاستنطاقه .

فهو ينطلق من النص كمادة مستقلة ، ثم إلى الواقع الثقافي كمفهوم حاضر له منطلقاته ، ثم إلى الحكم على المدروس الموصوف ؛ كنتيجة قابلة إلى الاستمرار والتجدد .

3- كما تميز شرحه في الجمع بين الموروث الثقافي والحضاري ، والجديد الذي وصل إليه النقد في تلك الفترة ، من سعة المادة وغناها ودقتها في معالجة النصوص ، ومعرفة مكامن الجمال فيها ، وجمعها للثقافات المختلفة الوافدة ؛ التي عكست انفتاح الحضارة الإسلامية وتقبلها لها ، واستيعابها لحضارات الشعوب غير الإسلامية بأريحية ، وتطويعها وإعادة تركيبها من جديد وإخراجها ثقافة حضارية إسلامية عربية أصيلة تحمل نصا بنفس البيئة الطيب وخصائصها المبدعة التي أنشأته وبعثته يتجدد في حلل قشيبة مميزة من الدراسة النقدية المغربية الجزائرية .

4. خاتمة:

ويتضحلنا – مماسبقذكره – أن شعر المديح النبوي شعر صادق بعيد عن حالة التزلف والتكسب ، يجمع بين الدلالة اللفظية الحسية و الدلالة الإشارية الصوفية والحالات الروحانية الإيمانية . كما يندرج فنه ضمن مفهوم الرؤية الإسلامية ، ويمزج لغته وبيانه وإيقاعه وصوره وأساليبه من لغة التراث الشعري القديم .

فقداستطاع بعض الشعراء أن يتفوقوا في شعر المديح النبوي كمحمود سامي البارودي وأحمد شوقي والشاعر المغربي إسماعيل زويريق في مجموعته الشعرية الطويلة المتسلسلة " على النهج...".

وعليه ، فالمديح النبوي شعر يركز على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله الخيرة ، وقد رافق شعر المديح النبوي ذكر مولده وهجرته ودعوته ، كما غطى مدحه صلى الله عليه وسلم جانبا من غزواته وجميع فتوحاته وحب آلبيته فانصهر الكل بما يعرف بشعر التصوف ليصبح فنا مستقلا مع البوصيري وابن دقيق العيد .

وفي العصر الحديث ، ارتبط بالمناسبات الاجتماعية كعيد المولد النبوي الشريف وعاشوراء . وفي نفس الوقت إستجاب غرضه لمنطق المعارضات .

فإلى أي مدى يمكننا الحديث عنه في الشعر المعاصر ؟ وهل ثمة حضور لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في شعر التفعلة بالحيثيات التي وجدناها في الشعر التراثي القديم أو الشعر البياني الحديث أم بصور أخرى متباينة سندع ذلك للعروض الآتية إن شاء الله ؟

5. الهوامش :

[1]فصول في الشعر ونقده للدكتور شوقي ضيف : ص 22 – 23 ط 3 . دار المعارف ، مصر 1988.

[2]نكت الهميان في نكت العميان : ص308 خليل بن أيبك الصفدي المطبعة الجمالية القاهرة 1911.

[3]المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري : لمخيمر صالح ص 211 .

[4]ديوان ابن الفارض : ص 105 مكتبة القاهرة 1963 .

[5]مختصر صحيح مسلم : للحافظ المنذري 218/2 ، الدار الكويتية 1969 .

[6]ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي دار الأندلس 1980 ص64 .

[7]انظر : سيرة ابن هشام : 282/1 – 286 – ت /محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة : 1384/5 .

[8]أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 213/4 (4167) ، الهيثمي في مجمع الزوائد : 217/8 .

[9]الصالب : الصلب ، إذا مضى عالم بدا طبق : إذا بدا قرن بدا قرن ، المهيمن :الشاهد ، خندف : الأصل مشية كالهرولة وسميت به ليلى امرأة .

إلياس بن مصفر، النطق : قال ابن الأثير جمع نطاق وهي أعراض من جبال بعضها فوق بعض ، أو شقة تشد المرأة بها وسطها ، ثم ترسل الأعلى

على الأسفل إلى الركبة ، والأسفل ينجر على الأرض " انظر الشفا : 168/1 .

[10]ديوان أبي الأسود الدؤلي ، تحقيق محمد حسان آل يسين بغداد 1964 .

[11]ديوان الفرزدق ، تحقيق عبد الله الصاوي مطبعة الصاوي مصر 1936 .

[12]أنظر : فصول في الشعر ونقده : ص 246 .

[13]انظر : تنفيس الشدة في تخميس البردة لإبراهيم حقي الموصلي ص 6 ، ص7 مط الحياة بغداد 1968 م .

[14]انظر : المدائح النبوية من ص : 196 – 207 .

[15]انظر : فصول في الشعر ونقده ص : 245 – 246 .

[16]البديعيات في الأدب العربي 36/35 .

[17]أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (909 - 974 هـ) فقيه شافعي ومحدِّث ومؤرخ ومتكلم، اشتهر بمصنفاته في الفقه الشافعي، مثل: الفتاوى الكبرى الفقهية، وتحفة المحتاج بشرح المنهاج، الذي يعد من أمهات كتب الفقه في المذهب الشافعي، وعليه المعتمد في الإفتاء في كثير من البلاد الإسلامية.

[18]كشف الظنون ص 1331 .

[19]البردة شرحا وإعرابا وبلاغة لطلاب المعاهد والجامعات م- 1443هـ 2005 .

البردة، شرحا وإعرابا وبلاغة لطلاب المعاهد والجامعات – محمد الحلو (دار البيروتي)

تأليف : محمد عطية الأبراشي، الناشر : مكتبة نهضة مصر .

[20]انظرالدكتور عباس الجراري:الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1982م،ص:141 .

[21] انظر إسماعيل زويريق: على النهج، الجزء 1، ط2004،1م، مطبعة وليلي، مراكش ؛ وانظر كذلك: على النهج، الجزء2، مطبعة وليلي، مراكش، الطبعة1 سنة 2006م .

[22] ورغم شهرة هذا الكتاب ومؤلفه ولكن يقول محقق هذا الكتاب الأستاذ الدكتور محمد مرزاق: لم يشتهر اسمه ولا تردد ذكره في بطون الكتب ! ولا ترجم له أحد من المهتمين بالسير والتراجم فإننا لا نعرف عنه لحد الآن إلاّ الاسم والنزر اليسير عن حياته ونستغرب اختفاء اسمه وعدم الاحتفال به وبإنتاجه العلمي في مجتمع اهتم اهتماماً كبيراً وعني عناية فائقة بتراجم الرجال وخصوصاً العلماء والأولياء والصالحين، ويعظم الاستغراب حين نجد ترجم وافية لبعضهم وإن لم يبلغ درجة ابن مقلاش ومكانته التي استخلصناها من شرحه .